

١٨

أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان

الجزء الأول

الاختيار الصعب

بقلم: د. وجيه يعقوب السيد
بريشة: أ. عبد الشافي سيد
إشراف: أ. حمدي مصطفى

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

اسْتَيْقظَتْ مكَّةُ ذات صباحٍ على خَبرٍ إسْلام «رمْلَة» بنْتِ أَبى سُفْيانَ ، ولمْ يصدّقِ الناسُ هذا الْخبرَ وقالوا فى دهْشَةٍ :

ـ كيفَ تتركُ بِنتُ أَبى سُفْيانَ دينَ آبائها ، وأَبوها واحدٌ منْ زُعماءِ الْعربِ وسادتها ، وأَعْدَى أَعْداءِ محمد ؟

وحاولَ أَبو سُفيانَ أَنْ يُثْنى ابْنَتَهُ عنِ الإسْلامِ ويُعيدَها إلى الْوَثَنيةِ بكلِّ السبُلِ ، لكنَّ محاولَاته باءَتْ جميعُها بالْفشلِ ، فقدْ أَعْلَنتْ رملَةُ تمسُّكَها بإسْلامِها وقالتْ لأَبيها فى تصْميمٍ :

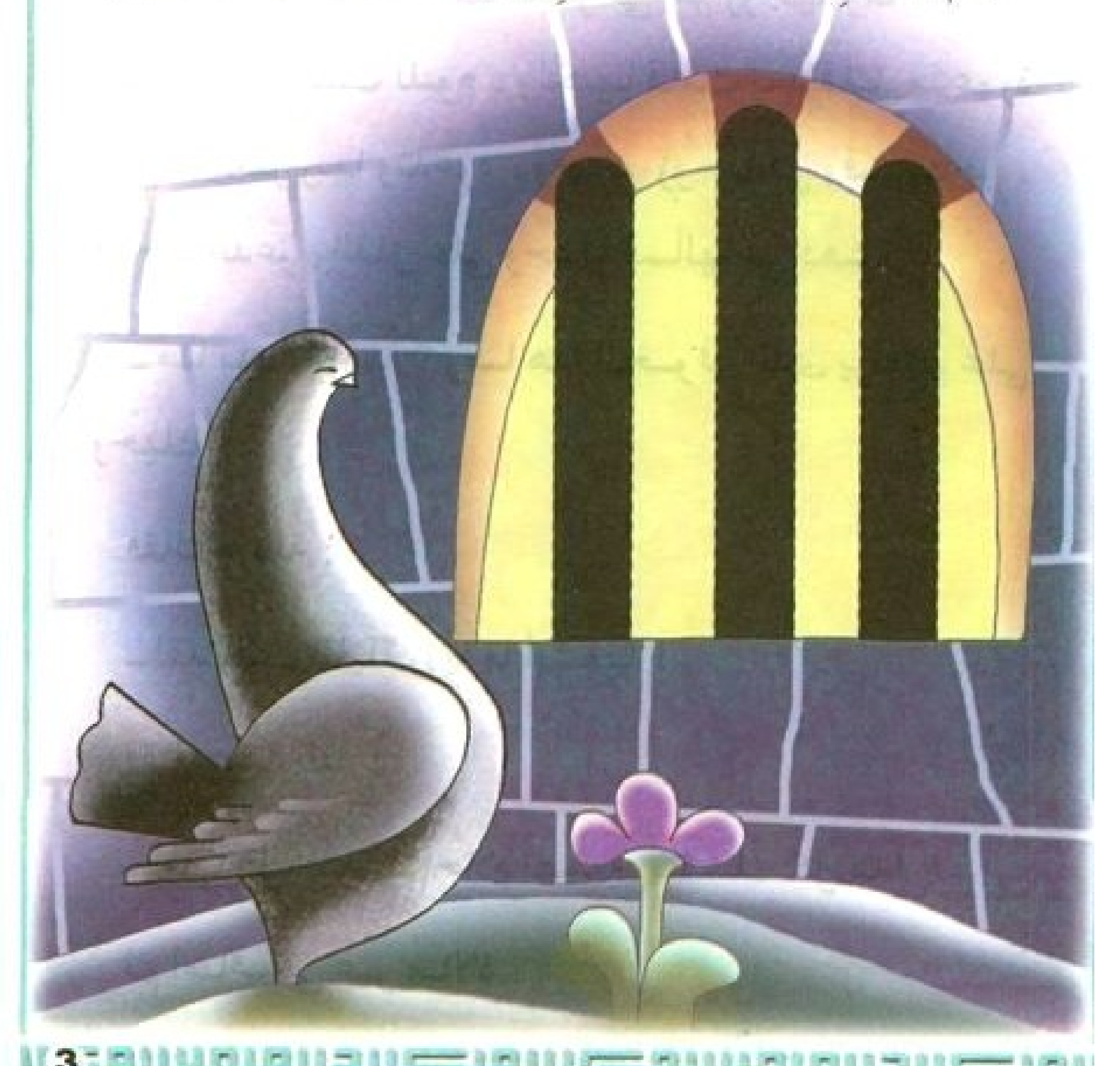
ـ ما كانَ لى أَنْ أَعودَ إلى الظُّلُماتِ بعْدَ أَن هدانى اللَّهُ للإيمانِ .

واشْتدَّ بطْشُ أَبى سُفيانَ بابْنته ، فحبَسَها وأَخذَ يُعذِّبُها عذابًا شديدًا كىْ تعودَ إلى دينِه ، لكنَّها تحمَّلت الْعذابَ فى شجَاعَةٍ وصَبْرٍ .

وذاتَ يومٍ أَشارَتْ على زوجِها «عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ جحْشٍ» بالْهِجْرَةِ إلى الْحبشَةِ فِرارًا من أَذى أَبيها وقوْمِها ، فوافقَ عُبَيْدُ اللَّه ، وحملَ زوجَتَهُ وأَمْتعتَهُ واتجهَا إِلى الْحَبَشَةِ مُهاجِرَيْنِ فى سَبيلِ اللَّه .

ومرت الأيام ، وعاش الزوجان في سعادة ، ورزقهما الله بطفلة جميلة أسمياها «حبيبة» ، وأحاطهما النجاشي ملك الحبشة ، كما أحاط كل مسلم ، برعايته وعطفه ، ووفر لهما الجو المناسب للعبادة والصلاة .

ولم تستمر سعادة الزوجة طويلاً ، فقد لاحظت تغيراً



كبيراً فى سلُوكِ زوْجِها ، إذْ أصبحَ فجأةً لا يُفيقُ من الْخمرِ ، وكلَّما راجعَتْه زوْجتُه ونصحَتْه بالتخلِّى عنها زجَرها وقالَ فى غضَبٍ :

ـ هذا شأْنى وحْدى ، وإيَّاكِ أنْ تحدِّثينى فى هذا الأمْرِ مرَّةً ثانيةً .

وباتتْ رمْلَةُ طوالَ ليْلها تفكرُ فى أمرِ زوْجِها وما أصابهُ ، وفجأةً استسْلَمتْ للنوْمِ ، ولكنها قامتْ بعْدَ قليلٍ مذْعورةً وهى تستغفرِ ربَّها وتدْعوه ، وحضر زوْجُها فى وقْتٍ متأخرٍ ، فلاحَظ الذُّعْرَ والْقلقَ على وجْهِها فسألها فى دهْشةٍ :

ـ ما بكِ يا رمْلَةُ ؟ وما هذا الْخوفُ الذى يرْتَسِمُ على وجْهِك ؟

فقالتْ رمْلَةُ :

ـ لقدْ رأيتُ اللَّيلةَ رؤْيا ما أبْشَعَها !

فقالَ عُبيْدُ اللّهِ :

ـ أمِنْ أجْلِ أضْغاثِ أحْلامٍ تصنْعينَ بنفْسِكِ كلَّ هذا ؟

ثم أضافَ فى غيْرِ مُبالاةٍ :

ـ وما هذه الرّؤْيا التى أَفْزَعَتْكِ إلى هذه الدرجةِ يا رمْلَةُ ؟

وهلْ تخُصُّكِ أمْ تخُصُّني ؟

فقالتْ رملَةُ :

ـ بلْ تخصُّكَ يا عُبيدَ اللهِ ، فقدْ رأيتُكَ فى أسْوإِ صورةٍ وأشْوهِ خِلْقَةٍ !

فضَجَّ عبيدُ اللهِ بالضّحكِ واتّكأَ على سريرِهِ وقالَ فى سُخْرِيةٍ :

ـ ليسَ هناكَ أسوأُ مما صرنا إليهِ !

وتعجَّبتْ رملةُ مما تسمعُ فقالتْ لزوجِها :

ـ ماذا تقصدُ بقولِك يا أبا حبيبةَ ؟

فقالَ في حدةٍ :

ـ لقدْ جلبَ علينا دينُ محمدٍ الشرَّ ، ومُنْذُ اتَّبعْناهُ ونحنُ نعيشُ في ضيقٍ ومُعاناةٍ .

فقالتْ رملةُ :

ـ بلْ كنَّا في ضيقٍ وشرٍّ قبلَ أن نتبعهُ ، فلما آمنَّا به شرحَ اللَّهُ صدُورَنا ، وأنارَ قلُوبَنا وأبْصارَنا .

ثم سألَتْهُ في قلقٍ وريبةٍ :

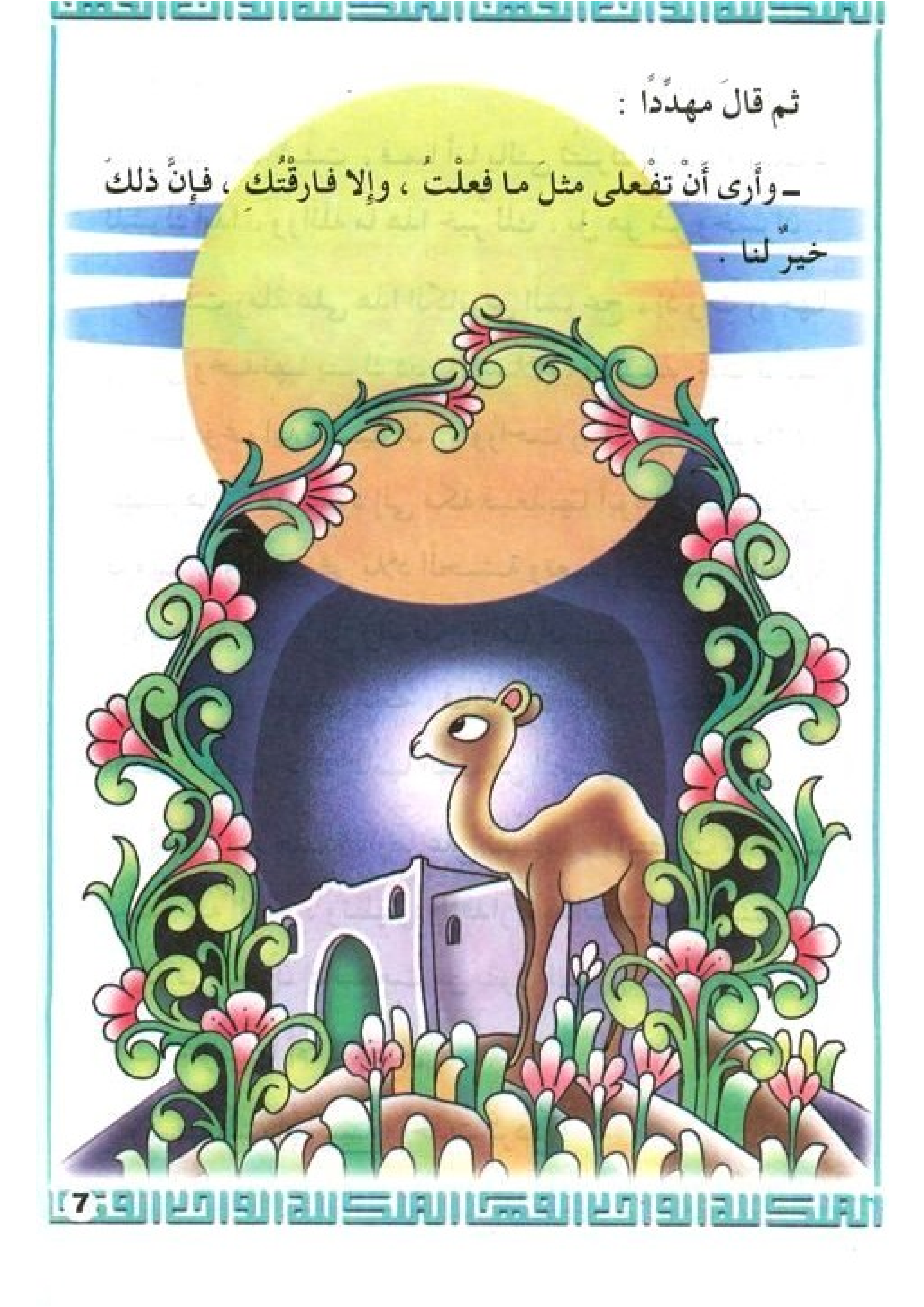
ـ ماذا تُخْفِي عليَّ يا عُبيدَ اللَّهِ ؟

فأجابها :

ـ لقدْ تركتُ دينَ محمدٍ ، وآمنْتُ بدينِ أهلِ الْحَبشَةِ ، فقدْ كنْتُ أَدينُ به قبلَ أَنْ أَدخُلَ في الإسْلامِ .

ثم قالَ مهدِّداً :

ـ وأَرى أَنْ تفْعلى مثلَ ما فعلْتُ ، وإلا فارقْتُكِ ، فإنَّ ذلكَ خيرٌ لنا .



فقالتْ رمْلَةُ :

ـ افعَلْ ما شئْتَ ، فما أَنا بالتى تتْرُكُ الإِسلامَ وتعودُ للشّرْكِ أبدًا ، وواللَّه ما هذا خيرٌ لكَ ، بلْ هو شرٌ وخُسْرانٌ .

وأَفاقَتْ رمْلةُ على هذا الْكابوسِ الْمزعج ، إِذْ رأَتْ زوجها وأَنيس وحْدتها يتركُ دين الإسلامِ ، ويتنصَّرُ تحت تأْثيرِ الْخمرِ وغواية الشيْطان . . وراحتْ رملَةُ تفكّرُ طويلاً فى مصيرها . . هلْ تعودُ إلى مكَّةَ فيعذّبُها أبوها ويشْمتُ بها قَوْمُها ؟ أوْ تبقَى فى بلادِ الْحبشة وتعيشُ فى قسْوة الْغربة والابْتعاد عن الأَهلِ والْوطنِ ؟ أَمَّا أَنْ تتنصَّر كما تنصَّر زوْجُها لكىْ تعيش معهُ ، فإِنَّ ذلكَ ما لمْ تفكّرْ فيه على الإِطْلاق ، فقدْ كان إيمانُها أثْبتَ من الْجبال !

وأَغْلقَتْ أمُّ حبيبة دارها على نفْسها ، وانْتظرتْ ما سوْفَ تُسفرُ عنه الأَيامُ ، وتظْهرهُ الأَقدارُ . وذات ليلة ، وبينما هى غارقَةٌ فى الْحزْنِ إذ سمعتْ من يقولُ لها فى الْمنامِ :

ـ لا تحزنى يا أُمَّ الْمؤْمنين !

واستيقَظَتْ أُمُّ حبيبة وأَخذتْ تردّدُ :

ـ أَمَّ الْمؤْمنينَ ! هل سأُصْبِحُ أُمًّا للمؤْمنين حقًّا ؟

ولمْ تمرَّ سِوى أيَّامٍ قليلَةٍ على هذه الرُّؤْيا ، حتى سمِعَتْ أمُّ حَبيبَةَ دقًّا على الْبابِ ، فأسْرعَتْ لتفْتحَ ، فإذا بها بجَاريةِ النَّجاشيِّ وهي تقولُ لها :

ـ أَبْشري يا أُمَّ حبيبة .

فقالتْ أمُّ حبيبةَ :

ـ بشَّرَكِ اللّهُ بكلِّ خيرٍ .

فقالت الْجاريةُ :

ـ إنَّ الْملكَ يقولُ لكِ إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ أرْسَلَ إليْهِ ليزوِّجَكِ لهُ ، ويطْلُبُ منكِ أنْ توكِّلى من يزوِّجُكِ !

ولمْ تصدِّقْ أمُّ حبيبةَ أذُنيها ، فأعْطت الْجاريةَ سوارَيْنِ من فضَّةٍ وخَواتِمَ كانتْ فى أصابعها وقالتْ لها وهى لا تقْدرُ على مُغالَبَةِ دُموعِها :

ـ بشَّرك اللّهُ بالْخيرِ ، وهدَى قلْبكِ للإيمانِ .

فقالت الْجاريةُ :

ـ لقدْ هدانى اللّهُ للإسْلامِ واتِّباعِ الرسولِ ﷺ ، وأَسْتحْلفُكِ باللّهِ إذا أتَيْتِ رسولَ اللّهِ فأقْرِئيه منى السَّلامَ .

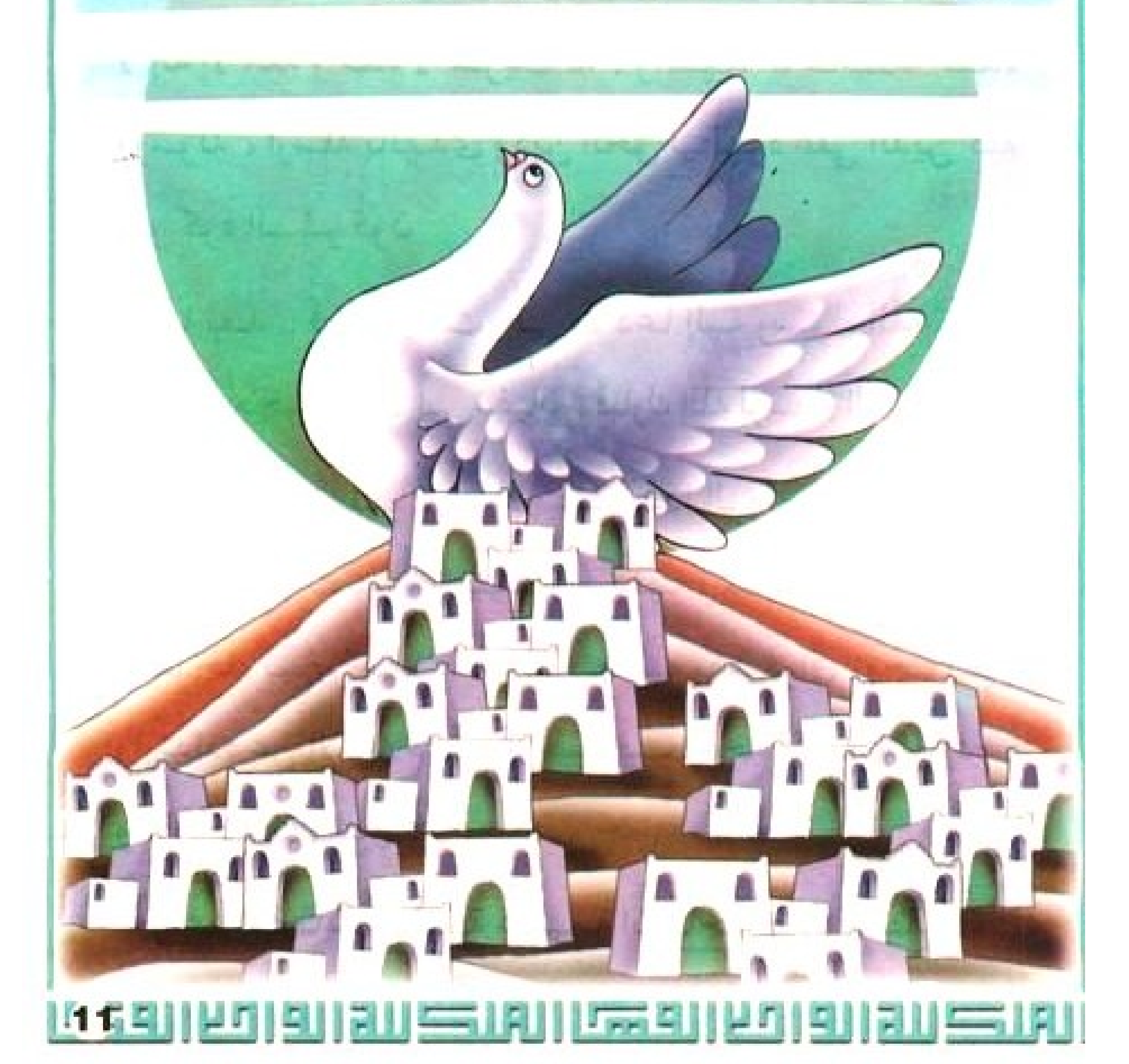
فقالتْ أمُّ حبيبةَ :

ـ أفْعلُ إنْ شاءَ اللّهُ .

وأرسلتْ أمُّ حبيبةَ إلى ابنِ عَمِّها خالد بنِ سعيد بنِ الْعاصِ

وجعلَتْهُ وكيلاً عنْها فى زواجها منَ النبىِّ ﷺ ، وفى المساءِ اجْتمعَ الْمسلمونَ فى قصْرِ النجاشىِّ فقالَ لهمْ :

ـ الْحمدُ للَّهِ الْملكِ الْقُدُّوسِ السلامِ الْمؤمنِ الْمهيْمنِ الْعزيزِ الْجبَّارِ ، أَشْهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ وأنَّ محمداً عبْدُهُ ورسولُه ، وأنهُ الذى بشَّرَ به عيسى ابنُ مرْيمَ ﷺ .



أَمَّا بعْدُ : فإن رسولَ اللَّه ﷺ كتبَ إليَّ أنْ أُزوِّجَه أمَّ حبيبة بنْتَ أبي سُفيانَ فأجبْتُ إلى ما دعا إليه رسولُ اللَّهُ ﷺ ، وقدْ أصدقْتُها أربعمائة دينارٍ .

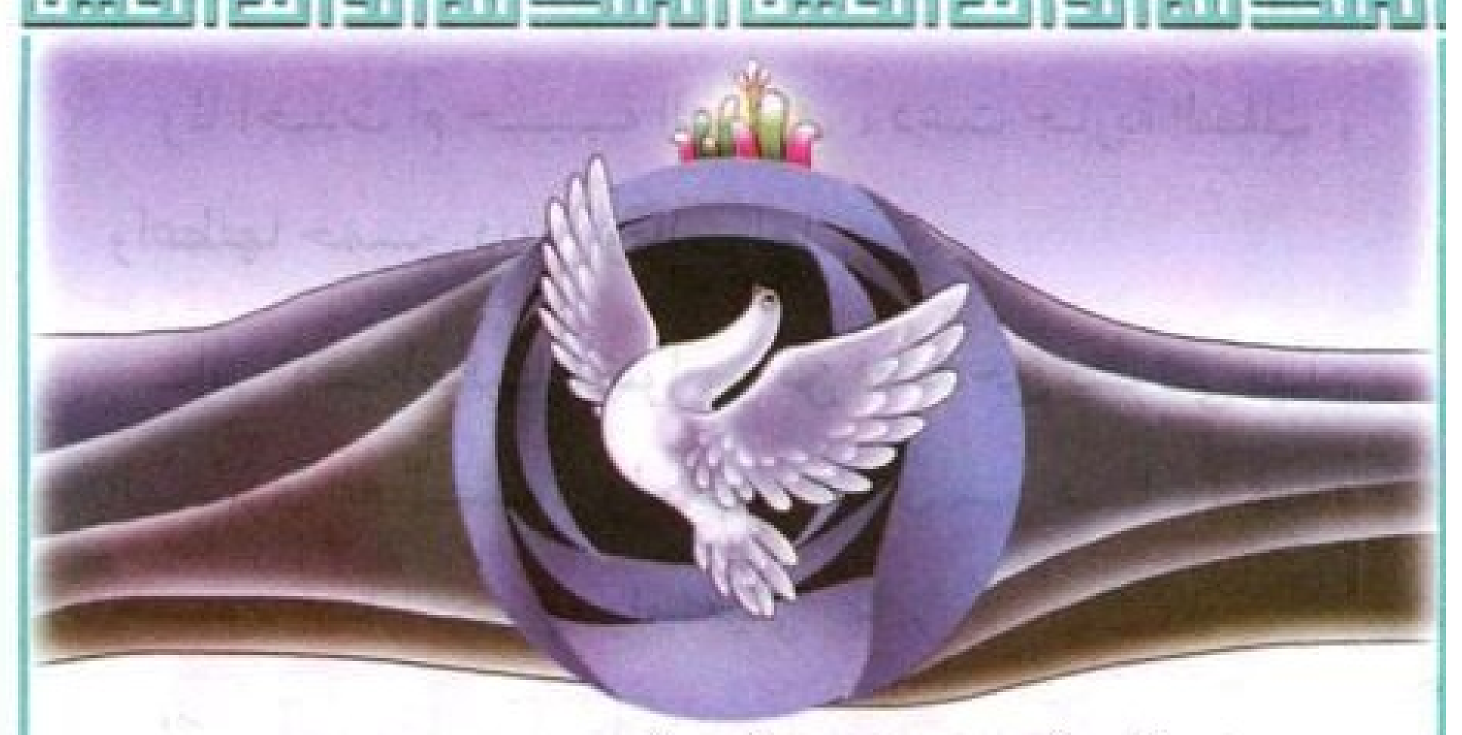
فأجابهُ خالدُ بنُ سعيد بنِ الْعاصِ وكيلُ الزوْجة قائلاً :

ـ الْحمدُ لله ، أحْمَدُه وأستعينه وأستنصرهُ ، وأشْهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ وحْدَهُ لا شريكَ له ، وأشْهدُ أنَّ محمداً عبْده ورسولُهُ ، أرسلَه بالْهُدى ودينِ الْحق ليُظْهرهُ على الدينِ كلِّهِ ولوْ كرِهِ الْمشْركُون .

أمَّا بعْدُ : فقدْ أجَبْتُ إلى ما دعَا إليه رسولُ اللَّه ﷺ ، وزوَجْتُه أمَّ حبيبة بنت أبي سُفيانَ ، فباركَ اللَّهُ لرسولِ اللَّه ﷺ .

وابْتَهجَ الْمسلمونَ في الْحبشَة بهذا الزَّواجِ الْعظيم ، فقدْ جاءَ تتْويجاً لصبْرِ أُمِّ حبيبةَ وصدْقها وتمسُّكها بدينِ اللَّه ، كما جاءَ ليُخْرجَها مما كانتْ تُعانيه بعْدَ فراقِ زوْجها لها وارْتدادهِ عنِ الإسلامِ ، فقدْ أصبحتْ زوْجةً لسيِّدِ ولَدِ آدمَ ، وأُمًّا لكُلِّ الْمؤمنينَ .

وأعدَّ النجاشيُّ وليمَةً عظيمةً ابْتهاجاً بهذه الْمناسبَة ،



ودعَا إليْها المسلمينَ وقالَ لهمْ :

ـ اجْلِسوا فإنَّ سُنَّةَ الأنْبياءِ إذا تزوَّجوا أنْ يُطْعِموا طعَامًا .

فجلسَ الصَّحابةُ وأكَلوا ، وهنَّأَ بعْضُهمْ بعْضًا بهذا الزواجِ الْمبارَكِ ، الذى ضربَ به الرسولُ ﷺ الْمثَلَ فى السُّمُوِّ والْعَظمةِ والتَّعاطُفِ معَ الْمسلمينَ .



ولما أَخَذتْ أُمُّ حَبِيبةَ الصَّداقَ ، دعتْ جارِيَةَ الْملكِ ، وأَعْطَتْها خَمْسِينَ دينارًا وقالتْ لها :

ـ إنى كنت أَعْطيْتُكِ سوارَيْنِ من فضَّةٍ حينَ بشَّرْتني بهذه الْبُشْرَى الْعظيمَة ، ولمْ يكنْ عندى سواهما ، فهذه خمْسُونَ دينارًا فَخُذيها واسْتعيني بها .

لكنَّ الْجارِيَةَ أبتْ أنْ تأْخُذَ منها شيئًا وقالتْ لها :

ـ باركَ اللَّهُ لكِ فى مالكِ يا سيِّدتى ، لقدْ أمرنى الملكُ ألاَّ آخُذَ منْكِ شيئًا ، فقدْ كافأنى بنفْسِه .

وأضافتِ الْجارِيَةُ :

ـ وقدْ بعثَتْ إليكِ أزْواجُهُ بهذه الْعُطورِ وهذه الأعْوادِ الطِّيبَةِ لتُقْدِمى بها على رسولِ اللَّه ﷺ .

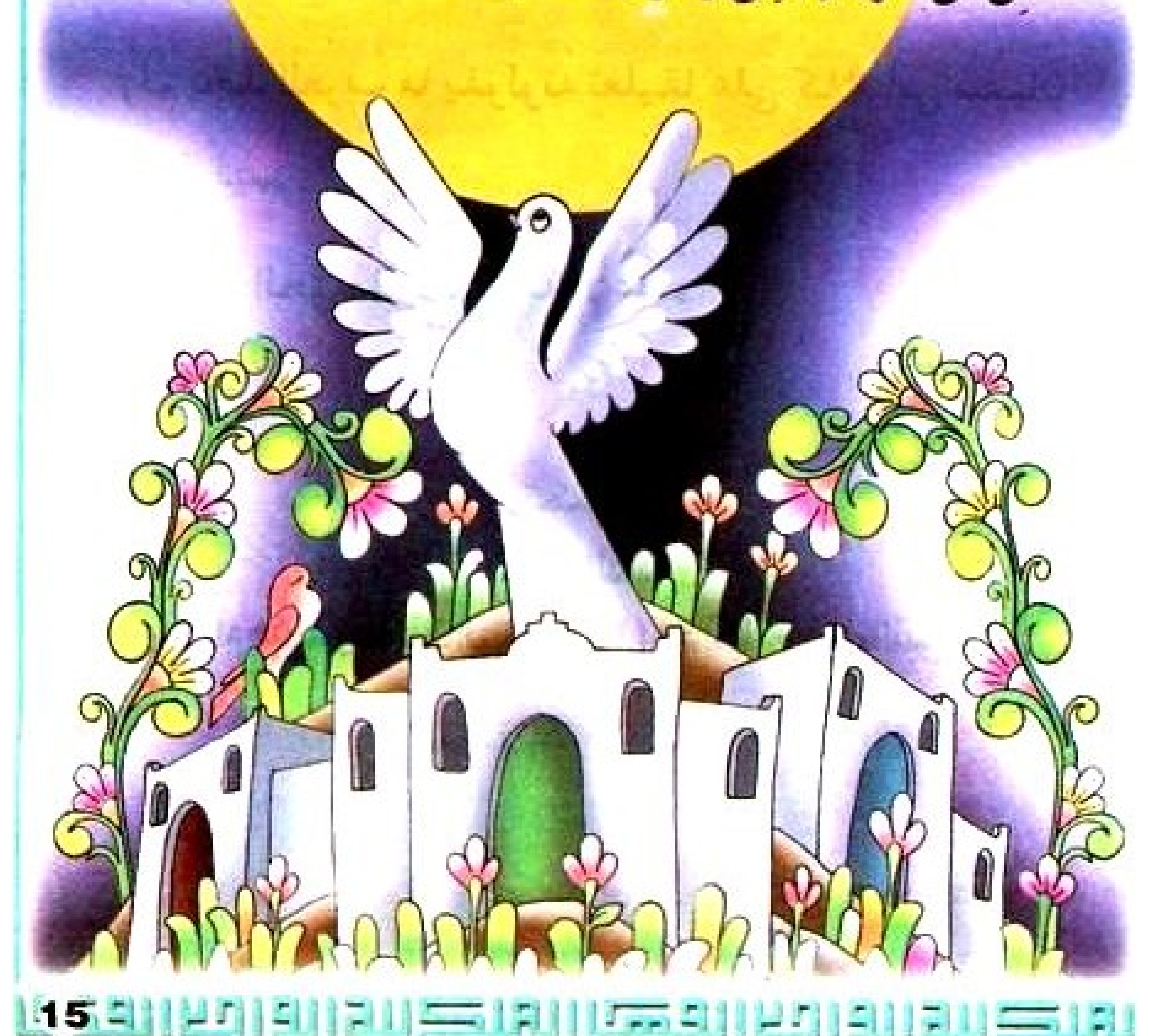
وشكرتْ أُمُّ حبيبَةَ الْجارِيَةَ ، وقبِلَتْ منْها الهدايا التى أرسلتْها أزْواجُ الْملكِ ثم سألتْها :

ـ هل لكِ حاجةٌ أَقْضيها لكِ ؟

فقالتِ الْجارِيَةُ :

ـ حاجتى إليك أنْ تُقرئى على رسول اللّه ﷺ منى السلام ، وتُعْلميه أنّى قد اتّبعْتُ دينهُ !

واستعدّتْ أمُّ حبيبةَ للرحيلِ إلى الْمدينة الْمنورة ولقاء الْحبيب ﷺ فى السنة السّابعة للْهجْرة ، وخفق قلْبُها بالْحبّ والإيمان وهى تركبُ راحلتَها ، وفاضتْ عيْناها وهى تمضِى فى طَريقها إلى رسول اللّه ﷺ .



وَزَفَّ أَهْلُ مكةَ الْخَبَرَ إلى أَبى سُفيانَ ، وانتظَروا أَنْ يقعَ مِنْ هَوْلِ الْمفاجأَةِ ، إذا علم أَنَّ ابْنَتَهُ تزوَّجت مِنْ محمد ﷺ ، لكنهم فوجِئُوا بِهِ يكادُ يطيرُ مِنَ الْفَرْحَةِ ولا يصدِّقُ أُذُنَيْه وقال فى فَخْرٍ :

ـ هو أَشْرَفُ الْعَربِ على الإطْلاقِ ، وحقٌّ لمَنْ يصاهِرُهُ محمدٌ أَنْ يفْخَرَ ويَتيهُ على النَّاسِ جَميعًا .

ولَمْ يجدِ الْعربُ ما يقولونَهُ تعليقًا على كَلامِ أَبى سُفْيانَ سوى قَوْلِهِمْ :

ـ حقًّا ، الْحَقُّ ما شَهِدَتْ بِهِ الأَعْداءُ !

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان (٢) مكانتها بين نساء النبى

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٧٣٢٥

الترقيم الدولى : ٦ ـ ٧٦٠ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧